حرية الفكر

هي حرية الحياة

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

حرية الفكر هي شيء أعم من حرية الآراء العقلية كما نفهمها على أنها جزء من الانسان معزول عن الشعور والاخلاق والبواعث العملية وأسباب المعيشة

حرية الفكر هي حرية التعبير عن « الشخصية الانسانية » بكل ما تشمل من حس وإدراك وخلق ومزاج ومجهود

وحرية الفكر بهذا المعنى هي شيء لا يختلف من حرية الحياة أو حرية الوجود فسيان أن تمنع الانسان أن يحيا ، وأن تمنعه أن يفكر ويستوفي جوانب « الشخصية » التي تبلغ تمام مظاهرها في التمييز والتفكير

وسيان أو يكادان يستويان أن تمنع التفكير وأن تمنع التعبير عن التفكير لان الفكرة التي لا نرى ضوء الشمس هي فكرة ميتة أو هي فكرة حية ولكن حياتها هي سبب الالم والكبت والفساد

« .. لست أدري ما عسى أن تنسجه الأعوام المقبلة من سرابيل المجد والفخار ، وليس في ميسوري أن أحلم بما سوف ينال من الفتوح والمغانم في ميادين العقول ، لكني أدري وأنا أنظر الى بحر المستقبل اللجي أن شاطىء الحياة لن تمسه نعمة أغمر ، ولا بركة أندر من الحرية . . »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا كانت حوادث الدفاع عن حرية الفكر لم تبلغ ما بلغته حوادث الدفاع عن حرية الحياة من الكثرة والعنف ، فذلك لا يدل على أن حرية الفكر أقل من حرية الحياة ، ولكنه يرجع الى أسباب متى اتضحت ظهر لنا أن الفكر والحياة في الشخصية الانسانية شيئان قلما يختلفان

ان الافكار عند الجمهرة الغالبة من الناس تتشابه وتتقارب بحيث يكفي للتعبير عنها منزع واحد هو المنزع الشائع بين السواد في زمن من الازمان

فالرجل العامي الذي لا يعبر عن فكرة خاصة ، ولا يقاتل في سبيل التعبير عنها كما يقاتل في سبيل الدفاع عن حياته ، انما يفعل ذلك لان فكره هو فكر صاحبه ، وفكرهما معاً هو فكر القرية كلها أو المدينة بأسرها أو الامة بحذافيرها . فلا نزاع فيه ولا حائل بينه وبين التعبير عنه كما يظهر في العادات العامة والآراء المتواترة والعقائد الشائعة

ومن ثم لا تشعر « شخصيته » بالنقص في جانب من جوانبها ، ولا يعالج مضض الحرمان من حرية التعبير التي نقول إنها تساوي عنده حرية الحياة

ولكن هات هذا الرجل وهات صاحبه وهات أمثاله وأمثال صاحبه وفاجئهم بعقيدة تمنعهم أن يعتقدوا كما يحبون ويستريحون ، وأنت ترى أنهم يشعرون بالخطر كما يشعرون بالموت ، اويجازفون فى هذا السبيل كما تجازف الجماهير فى سبيل الحياة

ذلك شأن العامة الذين تتشابه أفكارهم وتتقارب بحيث يكفى للتعبير عنها المزع الشائع بين السواد

أما الرجل الممتاز الذى تستولى عليه فكرة يخالف بها سواد الناس ويسبق بها الاجيال ، فهو كذلك لا يرى فرقا معدوداً بين القضاء على شخصيته ، والقضاء على تلك الفكرة ، أو الحيلولة بينه وبين التعبير عنها والاستجابة لدواعيها

غاية الفرق بين القضاء على الحياة والقضاء على الفكرة أن الحياة يقضى عليها مرة واحدة ثم ينتهى الاشكال فيها بين القاتل والمقتول

أما الفكرة فقد يطول أجل القضاء عليها أياما أو شهورا أو سنوات ، فاذا كان صاحبها يصابر قاتليها احيانا ، فليس ذلك دليلا على أن الحياة أعز وأغلى من الفكرة ، ولكنه دليل على أن تأجيل لدفاع عن الحياة مستحيل حين تهدد بالهلاك ، خلافاً للفكرة التي يجوز تأجيل الدفاع عنها ذهابا مع الامل فى صيانتها وتغليبها بعد حين

وربما كان شأن الانسان السابق للاجيال بأفكاره وأخلاقه كشأن كل حى فى مصارع الطبيعة يشعر بفضل من القوة فى بدنه وتركيبه . فان هذه القوة الفاضلة لتدفع بالحيوان الى الموت فى سبيل تخليدها وانتاج النسل الذى يحفظها ويعممها ويزيدها فى مدارج الترقية والتمام : يصارع كل حيوان ينافسه حتى يغلب منافسيه جميعاً أو يموت دون الغاية ، وهكذا الفكرة الجديدة إذا ملكت صاحبها دفعت به الى مكافحة الموت لاستبقاء هذه الظاهرة الجديدة أو هذه الغنيمة المستحدثة فى تاريخ الحياة

ولا شك أن حماية الغنيمة المستحدثة فى تاريخ الحياة واجب على بنى الانسان أجمعين ، بل هو الواجب الاول عليهم لانه هو الطريق الوحيد الى الترقى والمزيد

ويضاعف هذا الواجب أن الأفكار الجديدة كثيرة الأعداء قليلة الأنصار . . وهل كانت تحتاج الى الحماية لولا أنها كثيرة الأعداء قليلة الأنصار ؟ ؟

وهنا يبدو لنا التناقض العجيب فى تاريخ الحرية الفكرية حيث كان :

فكثرة الأعداء هى الموجب للحماية

وكثرة الأعداء هى فى الوقت نفسه المانع للحماية

وعلى المفكرين أن يواجهوا هذا التناقض الذى يتعرضون وحدهم لجرائره قبل ان يشعر بها من حولهم من الجماعات

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإنما تبدو لنا هذه الصعوبة على حقيقتها المرهوبة ، اذا ذكرنا أن تاريخ بنى الانسان لم يكن قط تاريخ ترحيب وهوادة مع الفكر الجديد كائناً ما كان الزمن أو الشعب أو موضوع الخلاف

فهذه اليونان القديمة قد اشتهرت بالحرية الفكرية . وأكبر فلاسفتها الثلاثة قد نكبوا من أجل الحرية الفكرية : سقراط مات محكوما عليه بتجرع السم الفاتل ، وأفلاطون قضى معظم حياته بين هارب ومغترب ، وقيل انه بيع مرة كما يباع العبيد ، وأرسطو نجا بحياته من أثينا فأوقعه الهرب السريع فى عقابيل الداء المميت

وانجلترا الحديثة ـ ولا سيما فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ـ قد اشتهرت كذلك بالحرية الفكرية وكانت على ما نعتقد أرحب صدراً لها من اليونان القديمة . ولكن ترى هل كانت انجلترا الحديثة تسمح بحرية الفكر لو لم تكن كل فكرة فيها توافق مصلحة فريق من الناس قادر على الدفاع والهجوم ؟

فانجلترا الحديثة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر كانت مثلا نادراً من أمثلة التوازن بين القوى المتعارضة والمصالح المتقاتلة : كان أصحاب المزارع الواسعة فيها أغنياء أقوياء يطلبون الحجر على التجارة والمحافظة على التقاليد ، وكان أصحاب المصانع فيها أغنياء أقوياء يكرهون الحجر على التجارة وينفرون من التقاليد ، وكان العمال أصحاب صوت مسموع وإن كانوا فقراء معوزين ، وكان الفلاسفة يعتمدون على انتشار التعليم وعلى تناقض القوى والمصالح فيقولون ما يشاءون ، وكان البرلمان قد سجل مكانه والعرش قد عرف حدوده والكنيسة قد لزمت نطاقها ، ومشت كل قوة باعتدال وانصاف لأنها لا تملك غير الاعتدال والانصاف

فهل كانت حرية الفكر تسعد فى انجلترا الحديثة لولا هذا التوازن النادر الذى لا فضل فيه لانسان والفضل فيه لكل انسان ؟

ان هذا لخليق أن يلهمنا صعوبة الحرية الفكرية ، ثم يفهمنا بالبداهة أنها تستحق من الحماية والرعاية بقدرما تستهدف له أبداً من تلك الصعوبة . ولكن العقدة هنا عقدة التناقض الذى لا يحل بالاختيار ولا يتأتى حله فى وقت من الأوقات الا بمعزل عن الارادة والتفكير

يقول الشاعر الأمريكى جيمس رسل لويل : « عبيد أولئك الذين يرهبون القول ذياداً عن المنكوبين والضعفاء ، وعبيد أولئك الذين يختارون فلا يؤثرون البغضاء والاستهزاء والأذى على النكوص عجمين عن الحق الذى ينبغى لهم ان يعتقدوه ، وعبيد أولئك الذين لا يجرءون أن يمضوا على الحق مع اثنين أو ثلاثة ! »

والذى قاله الشاعر الامريكى ليس بالحماسة الخطابية التى تغفل الحقيقة أحياناً في ابتغاء الايقاع والتأثير . بل هو المشاهدة العلمية والواقعة المحسوسة التى تعرضها علينا سجلات الشعوب . فلا الحرية الفكرية ولا الحرية السياسية وجدت أو استقرت قط فى الأمة التى يرهب أبناؤها الحق مع

اثنين أو ثلاثة ولا ينصرونه الا حين يكون فى غنى عن الانصار . وانهم لعبيد حقاً أولئك الذين يخافون الباطل ويزدرون الحق لأنهم يكرهون أنفسهم على ذلك أو يكرههم عليه الآخرون . وماذا يفرض السيد على العبد أشد من هذا التسخير الموصوم ؟

وصح على الأمم أن تحمى الحرية الفكرية لتحمى نفسها من غوائل الذل والنفاق والغباء . فهى حماية مفيدة لها ،عائدة بالخير والرفعة عليها ، مطلوبة من أجل حسناتها ومزاياها ، ولكنها لو خلت من المنافع ولم يبق منها الا أنها الحرية فى استكمال جوانب الشخصية والتعبير عن النفس الانسانية لكان هذا حريا بفرضها على كل أمة وكل مخلوق من أبناء آدم . لأن استكمال الحياة واجب لا شك فيه ولا حاجة به الى الفوائد والبراهين

وصدق أيضاً « انجرسول » حين قال :

« أيتها الحرية ! رفرفى أبداً على الأفق البعيد ولا تظلى أبداً حلماً فى خيال الغيور والمصلح والشاعر المفتون ، بل هلمى الينا واتخذى لك سكناً بين بني الانسان

« لست أدرى ما عسى أن ينبثق عنه رأس العالم من المكشوفات والمخترعات والآراء ، ولست أدرى ما عسى أن تنسجه الأعوام المقبلة من سرابيل المجد والفخار ، وليس فى ميسوري أن أحلم بما سوف ينال من الفتوح والمغانم فى ميادين العقول ، لكنى أدرى وأنا أنظر الى بحر المستقبل اللجى أن شاطىء الحياة لن تمسه نعمة أنفس ، ولا بركة أندر من الحرية على رجل أو امرأة أو طفل صغير »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عباس محمود العقاد

فى الحرية

* الحرية بالنسبة الى الجماعة هى ان تخضع الجماعة للقوانين التى هى من وضعها ، وبالنسبة للفرد هى ان يخضع الفرد للشرائع الدينية ولمبادىء الآداب والفضيلة (كولى)

* لا حياة لأمة بلا حرية ، ولا حياة للحرية بلا فضيلة (روسو)